فنون علم البديع

عرفنا من المقدمة السابقة في نشأة البديع وتطوره أن عبد الله بن المعتز هو أول من قام بمحاولة علمية جادة في سبيل تأسيس علم البديع وتحديد مباحثه التي كانت من قبل مختلطة بمباحث علم المعاني وعلم البيان.

وتتمثل محاولته هذه في كتاب «البديع» الذي ألفه وضمنه ثمانية عشر فنًّا من فنون البديع. وقد مهدت محاولته السبيل أمام البلاغيين من بعده فتأثروها وأفادوا منها في تطوير هذا العلم واستكمال مباحثه وقضاياه.

فقدامة بن جعفر وهو من معاصري ابن المعتز أولى البديع اهتمامه وزاد فيه تسعة أنواع جديدة. وأبو هلال العسكري اعتمد ما أتى به ابن المعتز وقدامة من فنون البديع وأضاف إليها حتى بلغت عنده سبعة وثلاثين نوعًا، ثم جاء ابن رشيق القيرواني فزاد على من تقدموه تسعة أنواع لم يرد لها ذكر عندهم.

وهكذا أخذت فنون البديع تنمو وتتكاثر على تعاقب الأجيال والعصور حتى بلغت في القرن الثامن الهجري عند الشاعر صفي الدين الحلي مائة وخمسة وأربعين محسنًا بديعيًّا.

وهذه المحسنات يقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها عن التعقيد المعنوي.

والمحسنات البديعية ضربان: معنوية ترجع إلى تحسين المعنى أولاً وبالذات وإن كان بعضها قد يفيد تحسين اللفظ أيضًا.

وضرب لفظي يرجع إلى تحسين اللفظ أصلاً، وإن تبع ذلك تحسين المعنى لأن المعنى إن عبر عنه بلفظ حسن استتبع ذلك زيادة في تحسين المعنى وليس من غرضنا هنا التوسع في دراسة المحسنات البديعية إلى حد الإلمام بها جميعها وإنما الغرض هو التركيز على أهم هذه المحسنات للتعرف عليها وبيان أثرها في تحسين الكلام لفظيًّا ومعنويًّا.

ولما كانت المعاني هي الأصل والألفاظ توابع وقوالب لها، فإننا نبدأ بدراسة المحسنات المعنوية.

المحسنات البديعية المعنوية

المطابقة:

ويقال لها أيضًا: التطبيق، والطباق، والتضاد.

والمطابقة في أصل الوضع اللغوي أن يضع البعير رجله موضع يده فإذا فعل ذلك قيل: طابق البعير.

قال الأصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع. وقال الخليل بن أحمد: طابقت بين الشيئين، إذا جمعت بينهما على حد واحد.

وليس بين التسمية اللغوية والتسمية الاصطلاحية أدني مناسبة، ذلك لأن المطابقة أو الطباق في اصطلاح رجال البديع هي: الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في كلام أو بيت شعر كالجمع بين اسمين متضادين من مثل: النهار والليل، والبياض والسواد، والحسن والقبح، والشجاعة والجبن، وكالجمع بين فعلين متضادين مثل يظهر ويبطن، ويسعد ويشقى، ويعز ويذل، ويحيي ويميت. كذلك كالجمع بين حرفين متضادين، نحو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] بين حرفي الجر «اللام وعلى» مطابقة، لأن في«اللام» معنى المنفعة وفي «على» معنى المضرة، وهما متضادان ومثله قول الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخلص منه لا علي ولا ليا

وقد تكون المطابقة بين نوعين مختلفين كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] فإن أحد المتضادين اسم وهو «ميتًا» والآخر فعل وهو «فأحييناه».

وقال زكي الدين بن أبي الأصبع المصري: المطابقة ضربان: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة. وضرب يأتي بألفاظ المجاز.

١ - فالضرب الذي يأتي بألفاظ الحقيقة هو ما يسمى المطابقة أو الطباق ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم:٤٣-٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۝٢٠ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:١٩-٢٢]، وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:١٨] ومنه قول النبي ﷺ: «فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة للكبر، ومن الحياة

للموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الحياة مستعتب [١]، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار».

ومن شواهد المطابقة الحقيقية شعرًا قول الحماسي:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

وقول آخر:

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرني أني خطرت ببالك

٢ - والضرب الذي يأتي بألفاظ المجاز يسميه قدامة بن جعفر «التكافؤ» ومنه قول الشاعر:

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمي الذمار صبيحة الإرهاق

فقوله «حلو ومر» يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان ولا في شمائله ما يذاق بحاسة الذوق.

ومنه أيضًا قول الشاعر:

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب تحرك يقظان التراب ونائمه

فالمطابقة هي بين «اليقظان والنائم»، ونسبتهما إلى التراب على سبيل المجاز وهذا هو «التكافؤ» عند قدامة وابن أبي الأصبع. أما المطابقة عند قدامة ومن اتبعه فهي اجتماع المعنيين المختلفين في لفظة واحدة مكررة، كقول زياد الأعجم:

ونَبِئتهم يستنصرون بكاهل وللؤم فيهم كاهل وسنام

فاللفظة المكررة هنا هي «كاهل» ومعناها في الشطر الأول من البيت «مَن يُعتَمد عليه في الملمات، يقال: فلان كاهل بني فلان أي معتمدهم في الملمات وسندهم في المهمات». وهي في الشطر الثاني: مُقَدَّمُ أعلى الظهر مما يلي العنق.

أنواع المطابقة:

والمطابقة ثلاثة أنواع:

مطابقة الإيجاب.

مطابقة السلب.

وإيهام التضاد.

---

(١) استرضاء؛ لأن الأعمال بطلت وانقضى زمانها وقيل: رجوع عن الخطأ والذنب وطلب للرضا.